

سبارتاكوس.. ثورة تهرز عروش روما وستوديوهات هوليوود

كيرك دوغلاس غلادياتور السينما العالمية، وستانلي كوبريك حارسها الفكري خلف الكاميرا



الأغلام المكسورة تصنع التاريخ

المتحرك، والمنسجم مع جميع عناصر العمل كتركيزه على الموسيقى ذات العمق التراجيدي المؤثر في النفوس، الذي أكسب سبارتاكوس تلك الجماليات النادرة في الكادر السينمائي، هو عمل كوبريك الطويل كمشروع فوتوغرافي لا يدع مجالاً للاعتباطية أو المصادفة، ولا يسمح لنفسه بتلك المجانية في اللقطة التي يجب أن تلتقطها عدسته.

لمسات خاصة

يعد سبارتاكوس أول إنتاج ضخم لكوبريك، بعد سلسلة أفلام صنعت بميزانيات متوسطة وصغيرة، مما مكّنه من الإشراف على جميع مراحل العملية الفنية، إيماناً منه بأن المخرج هو ليس فقط ذلك الذي يراقب التصوير خلف الكاميرا، ويدير سير العمل مثل شرطي مرور. وفي هذا الصدد يقول كوبريك "كنت أقوم بدور المصور والمخرج والمنتج ومساعداً للمنتج وفني المؤثرات الصوتية، وغيرها من المهام، وكان الأمر بالنسبة لي عبارة عن خبرة وتجربة غنية، وبما أنني اضطررت لأن أعمل كل شيء بمفردتي فقد اكتسبت معرفة صحيحة وشاملة في كل الجوانب الفنية اللازمة في صناعة السينما".

لمسات دوغلاس وتدخلاته في الفيلم، تجاوزت الأداء التقني، مستفيداً من خبرته ومعرفته للعناصر الفنية الأخرى، وهو أمر لم يرق كثيراً لكوبريك، المهووس بالتفاصيل والساعي نحو تحري الكمال، فقال عن التجربة التي استمتع بها في لندن وعكف على إقامة الورشات والتجارب، "كان بالإمكان تحسين السيناريو أثناء التصوير لكن ذلك لم يحدث أبداً فدوغلاس كان المنتج وجرت الأمور بالطريقة التي أختارها كل من دوغلاس وكاتب السيناريو والتون ترامبو، والمنتج المنفذ إدوارد لويس".

ورغم كل ذلك فإن صوت الإخراج كان عالياً في الفيلم، وبدأ واضحاً أن اشتغالات المخرج طغت على صورة الممثل، وحتى على النض الذي قدمه كاتب السيناريو والتون ترامبو، عن رواية تحمل الاسم نفسه لهوارد فاست. فهو كما يرى الناقد محمود منير، لم يكن صرخة في وجه أميركا الكارثية، حينها، كما أشار بعض النقاد، فقد كان كوبريك يبحث في "عمق علاقة الإنسان بقدره، الذي يصنع منه بطلاً، ثم يهزمه لأن الناس لم يمتلكوا إرادة التغيير".

الابتدائية، زاد هذا الحس بالوصول للمرحلة الثانية، ثم درس باكاديمية الفنون في نيويورك بعد حصوله على منحة خاصة، حتى انضم للبحرية الأميركية مع الحرب العالمية الثانية كضابط اتصالات، إلا أن الإصابة أبعده عن الحرب.

عاد إلى نيويورك وإلى عالم التمثيل وساعدته الممثلة لورين باكال في المشاركة بأول أعماله السينمائية ثم عرف في ما بعد بتقديم الشخصيات المحمية التي تتقاطع تقاطعاً غريباً مع سيرة حياته الطويلة المليئة بالأحداث والفواجع، وكذلك النجاحات الخارقة.

يذكر دوغلاس طفولته حين كان ولداً يسير بصحبة والديه في إحدى شوارع أميركا، يشير إلى إحدى إعلانات الأفلام ويقول لوالديه "يوماً ما سأكتب اسم أمي واسمي على يافطة كهذه" فيضك الوالدان. تشر الأوامر ويصبح كيرك ممثلاً معروفاً، ويمتلك شركة إنتاج تحمل اسم أمه "برينا" ويقول الرجل "انظري يا أمي، برينا تقدم فيلم سبارتاكوس" فترد السيدة "أميركا أرض تحقيق الأحلام الرائعة".

ثار دوغلاس ثورة "غلادياتور سبارتاكوسي" على نوعية الأفلام التي دأبت هوليوود على تقديمها من خلال مغامراته الإنتاجية التي مكنته من العمل في الأفلام التي يريدها، وكانت مطالبته بضرورة ذكر اسم التون ترامبو، ككاتب سيناريو، على أعماله عام 1960 بمثابة التحدي لتلك السياسة الكارثية المقيتة، وكان من أهم العوامل التي أدت إلى إنهاء العمل وفقاً للقائمة السوداء التي طبقتها هوليوود على المؤلفين والممثلين والمخرجين المتهمين بالانتماء للحزب الشيوعي أو بالتعاطف معه.

أما عن ستانلي كوبريك (1928-1999) مخرج الفيلم، فيعده السينمائيون والنقاد، واحداً من أعظم صناع الأفلام في التاريخ، ووصفه المخرج ستيفن سبيلبرغ، بـ"صانع الانفجار العظيم لأبناء جيله".

كان كوبريك، يسعى في جميع أفلامه إلى الإتيان الكامل في أدق تفاصيل المشهد السينمائي، ويظهر ذلك واضحاً في سبارتاكوس الذي بدت كادرته بمغابة المعرض التشكيلي

سبارتاكوس" في إشارة إلى عنفوان التحدي، وقوة الثبات والإخلاص لفكرة الثورة التي تصرخ بها دماء المقاتلين وهم على قلب رجل واحد. حادثة هذه الجملة التي غدت قولاً مأثوراً في جميع الثقافات، هي أنه وبعد هزيمة سبارتاكوس، واقتياده أسيراً مع بضعة آلاف من رفاقه المقاتلين، أراد قادة روما أن يجعلوه عبدة لكل من تتسول له نفسه التمرد على العرش الإمبراطوري، عبر التفتن في تعذيبه ومن ثم قتله أمام الحشود، لكنهم لا يعرفون شخصه، ويجهلون وجه هذا الرجل الذي أفرغ كل روما.

أوقف الأسرى في صفوف ثم نادى أحد القادة "من هو سبارتاكوس؟"، اجاب بكل شجاعة وشموخ "أنا سبارتاكوس"، لكن صوتاً ثانياً ارتفع في الخلف "أنا سبارتاكوس" ثم ثالثاً ورابعاً، إلى أن صحت الألاف من أصوات الأسرى بنفس العبارة التي نقلها الفيلم في مشهد كان غاية في التأثير، من خلال تلك الجماهير الهائلة في لقطات صورت عبر كرنيات وشاربوهات منقطة التحريك، ويرافقها ميكساج بزواج بين صدى الصوت والخلفية الموسيقية.

الهزيمة العسكرية التي مني بها سبارتاكوس ورفاقه في هذا الفيلم الشامخ، تحولت انتصاراً مدوياً بفضل إبراز تلك الروح التواقفة إلى قيم الحرية والعدالة، عبر تلك الوجوه التي أدمتها الكدمات، وتعكس قلوباً لوحتها الشمس، وسكنها عشق حياة أفضل.

ممثل مدهش ومخرج بارع

"كل ممثل من الشخصية التي يلعبها نصيب"، هذا ما تؤكد سيرة حياة الممثل الذي لُقّب بـ"الأسطوري" كيرك دوغلاس، الذي ولد سنة 1916، تجاوز المئة عام وأنجز أكثر من 100 عمل لم يقف من خلالها سوى المزيد من الإدهاش. التقاسيم الحادة والرجولة الطاغية جعلت منه فارس السينما ومقاتلها الأول بلا منازع، فكانما السينما لم تخلق إلا له، وكانما لم يُخلق إلا للسينما. كانت هوليوود تنتظر دوغلاس، منذ أن قدم أسواه الفقيران من روسيا إلى أميركا تجنباً لويلات الحرب، وخوفاً من التجنيد.. أي من نفس المصير الذي لقيه سبارتاكوس، في مدينته البلغارية قبل ما يزيد عن ألفي عام. وكان على كيرك الصغير أن يعمل ليغطي نفقات الدراسة ثم تعلم المصارعة. أحب دوغلاس الإلقاء والتمثيل منذ كان طالباً في المرحلة

كبيرتين، الأولى بقيادته والثانية بقيادة الفرنسي كريكوس. ثم بقيم المعسكرات ويُمضي الشتاء في تدريبهم على القتال. وفي ربيع سنة 72 قبل الميلاد يغادر مع جنوده معسكرات الشتاء ويترك صوب الشمال للخروج من الأراضي الرومانية. مثل كل الثورات التي يخترقها الانتهازيون ويركبها المرتزقة والأقاون، تتلصق فرقة كريكوس وتغري غنائم السلب والنهب بعض أفرادها. فينصب لها فيلقان من الجنود الرومانيين كميناً، ويوشكان القضاء عليها لولا وصول سبارتاكوس في الوقت المناسب، وتمكنه من القضاء على الفرقتين.

يعلن التغيير العام في عاصمة الإمبراطورية، ويجتمع مجلس الشيوخ ليحرك ثمانية فيالق من القوات الخاصة بقيادة ماركوس كراسوس للقضاء على سبارتاكوس. ينشأ ماركوس ستة فيالق على الحدود الشمالية لطع الطريق على الثوار ويكلف مومبيوس بقيادة الفيلق للنهاية ومهاجمتهم من الخلف. يهزمهما سبارتاكوس، لكنه يجد صعوبة بالغة في اختراق الجبهة المعترضة في الشمال، فينسحب عائداً إلى المنطقة الوسطى ثم إلى الجنوب.

حين يتفق سبارتاكوس مع القراصنة على نقله مع رجاله إلى جزيرة صقلية، يتدخل سلاح المال الذي استعمله عدوه القائد الروماني كراسوس، فيغديق على القراصنة العطاء ليركوه محاصراً دون قدرة على التحرك شمالاً أو جنوباً. وكما يحدث في عصرنا من مزادات سياسية وسباق نحو المناصب الرئاسية، يتنافس القائد الروماني يوميي وكراسوس على محاصرة الثوار وقطع الإمدادات عنهم، سعياً وراء منصب متقدم من مجلس الشيوخ. وعندما أحكم الجيش الروماني القبضة على الثوار، وأمعن في محاصرتهم بما لا يتيح لهم أية فرصة للنجاة، يقرر سبارتاكوس القتال إلى آخر رمق، بدل الاستسلام لعدوه، رغم إدراكه بأنه يقود معركة غير متكافئة.

وجد هذا القائد الأسطوري نفسه أمام خيارين، إما أن يموت عبداً في حلبة المصارعة أمام عيون أسدياه وهم يتسلون بمشاهدة دمائه النازفة في مواجهة عبد آخر من أبناء طبقتهم المضطهدة أو أن يموت ميتة تليق ببطل في ساحة القتال، وهو يدافع عن قيم الحرية والعيش الكريم مع رفاقه في القضية.

احتفى الفيلم بأجمل وأبلغ مقولة خلداه التاريخ، وهي "أنا

عندما يجتمع كيرك دوغلاس، الثائر على نوعية الأفلام التي دأبت هوليوود على تقديمها في فترة الستينات، وستانلي كوبريك، الذي وصفه ستيفن سبيلبرغ، بـ"صانع الانفجار العظيم لأبناء جيله"، في عمل عن سبارتاكوس الثائر، لا يمكن أن تكون النتيجة غير عمل ملحمي خالد تتجاوز عبره السرد التاريخي لقصة المقاتل الذي قاد تمرداً عنيفاً ضد الإمبراطور الروماني، ليكون عابراً للأزمان تدوي صرخته الشهيرة "أنا سبارتاكوس" أينما ساد الظلم وطغى الحاكم.

كل شيء في فيلم سبارتاكوس يوحي باننا إزاء عمل من العيار الثقيل. يكشف منذ إشارة ما قبل التيتراغ، عبر تلك الموسيقى المحمية الإخاذه، ومشاهد التدريب التي توقف الأنفاس، باننا أمام شريط روائي خالد، خلود اسم بطله الضارب في أعماق المخيلة الإنسانية، وقصته التي ما زالت تسمع بأكثر من قراءة وتأويل في زماننا: زمن الثورات المخدولة والمصدومة، الثورات الناهضة بين العفوية والتصنع والكذب والتضليل، والصدق والتمتص على الجميع يصرخ ويصرخ بجملة سبارتاكوس الشهيرة، هو ومن معه من مناصرين، وكذلك من منافقين ومضللين "أنا سبارتاكوس".

ويلعب دور البطولة في الفيلم، الذي أخرجه ستانلي كوبريك عام 1960، كيرك دوغلاس، في دور سبارتاكوس، ولورانس أوليفيه بدور ماركوس كراسوس. وارتكز بالأساس على رواية تحمل الاسم نفسه للكاتب الأمريكي هوراد فاست. وتدور أحداثه حول قصة سبارتاكوس العبد المصارع الذي قاد ثورة أقرانه من العبيد ضد الإمبراطورية الرومانية بين عامي 71 و73 قبل الميلاد، والتي عُرفت باسم "ثورة العبيد الثالثة". ولأنه وسيم وقوي البنية، يشتريه لينؤلوس باتياوس، مالك مدرسة تدريب المصارعين في كابوا. وفي وقت قصير، يبرز سبارتاكوس في فنون القتال ويصبح واحداً من أقوى أربعة مصارعين في المدرسة. هؤلاء المصارعين الأربعة يشاركون بدورهم في جولة ينظفها السيناتور ماركوس كراسوس، يمتاز فيها سبارتاكوس، ابن حلقته المصغرة، و"زيميله في العبودية"، الأفريقي درابا، ويهزم أمامه. ينتظر درابا القرار الأخير بالعفو عنه أو قتله.

في تلك اللحظة، يدرك أن سبارتاكوس لم يواجهه بكل قوته التي ادخر الكثير منها لدواعي نفسية وإنسانية بدأت تشكل وعياً جديداً بمدى الظلم الذي تعاني منه طبقة العبيد. وعندما يأتي الأمر بالقتل، يهاجم درابا، الجنود الرومان ويقتل بعضهم قبل أن يصغوه. تتورث ثورة سبارتاكوس، في تصعيد درامي مثير. وفي اليوم التالي، يعلن العصيان فينضم إليه سبعون مصارعاً، ويقالتلون الجنود بأدوات المطبخ، ثم يستولون على الأسلحة والدروع وعربات القتال ويلتزمون مع بقية العبيد المحررين بسفوح جبل فيزوفيو.

تلاحق المتمردون فرقة بقيادة غايوس كلوديوس، الذي يحاصرهم مانعاً عنهم جميع الإمدادات، أملاً في استسلامهم بعد أن يحاصرهم الجوع، لكن سبارتاكوس يجد منفذاً، وينجو هو ورفاقه بعد أن هزم تلك الفرقة بفضل ذكائه الذي يضاف إلى قدراته البدنية ومهاراته القتالية.

تنتشر أخبار هذه المعركة بسرعة ويتدافع العبيد والرعاة من كل حذب وصوب لنصرتهم، بينهم حبيبتة العبد فارينا. وفي سرعة قياسية، يجد سبارتاكوس سبعين ألفاً من العبيد تحت إمرته. فيقسمهم إلى مجموعات تتوزع ضمن فرقتين

تري، من يكون هذا الفيلم الذي افتتح للعرض في أكتوبر عام 1960 في الولايات المتحدة، وبلغت أرباحه 60 مليون دولار رغم أن ميزانية إنتاجه لم تتجاوز 12 مليون دولار، ورتب لـ17 جائزة سينمائية وثال 4 جوائز أوسكار منها أوسكار أفضل ممثل مساعد لبيتر أوستينوف، بالإضافة لأربع جوائز سينمائية أخرى مثل جائزة أفضل فيلم درامي من جوائز الغولدن غلوب؟

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

كثيرة هي أوجه الشبه والتلاقي بين غلادياتور السينما العالمية كيرك دوغلاس، الذي أوقف النزعة الكارثية المهووسة بمعادة كل من تشتم فيه نزوعاً نحو قيم تحررية في مجتمع هوليوود عند خمسينات القرن الماضي، وبين سبارتاكوس، غلادياتور حلبات المصارعة في روما القديمة، والمنتص على انظمتها الاستبدادية في أشهر ثورة للعبيد هزت عروش القيصرية عام 70 قبل الميلاد.

قدم دوغلاس، إلى أميركا مع والديه الفقيرين من أقاصي جبال القوقاز التي كانت تحت سيطرة الاتحاد السوفييتي. وأصبح نجماً عالمياً بعد دوره البارز كبطل ملاكمة عديم الضمير في فيلم "البطل" (1949) وحصد منه أول ترشيح له على جائزة الأوسكار. ومن وادي مدينة ساندياسكي في جنوب غرب بلغاريا الحالية، جاء سبارتاكوس، إلى روما مسافراً مع زوجته كفتانم حرب للبيع في سوق الرقيق، فائسار الترتاب إليه في المسارح كقاتل لا ينكسر سيفه، بالإضافة إلى بنية جسدية أخاذه، وملامح وسيمية وقاسية، ربما لن توجد إلا عند كيرك دوغلاس، بعد أكثر من ألفي عام.

الفيلم احتفى بأجمل وأبلغ مقولة خلداه التاريخ، وهي «أنا سبارتاكوس» في إشارة إلى عنفوان التحدي، وقوة الثبات والإخلاص لفكرة الثورة التي تصرخ بها دماء المقاتلين وهم على قلب رجل واحد

كان على البشرية أن تنتظر كل هذه القرون لتتساهد أيقونتها المحمية مجسدة من لحم ودم على شاشة السينما، بعد أن خلدته نصب تنكاري عند نهر ستورما، حيث كانت تعيش قبيلة مايدي، التي ينحدر منها. وبعد أن نحت الفنان الفرنسي على الرخام عام 1830، ورسمه اللبيني جوان لونا، وكذلك فعل لوحته الشهيرة عام 1884. وكذلك فعل الفنان البريطاني بول كارسيك في 2010 في عمله القابع بمركز ماريلبيون في لندن.

وفي عام 1958، استطاع المؤلف الأرمني السوفييتي آرام خاتشادوريان، أن يجمع بين فن الموسيقى والباليه ويقدم رائعته سبارتاكوس عبر فرقة الباليه والأوبرا الوطنية الأرمنية؛ وهي عمل فني عملاق يحكي قصة هذا الثائر التاريخي الذي تحاول كل جهة أن تجذبه إليها، وتعده باسمها، كما فعلت المناضلة اليسارية الألمانية روزا لوكسمبورغ، حين سمت تنظيمها باسمه في أواخر القرن 19، وكذلك حدثت حذوها دولة الهند حين أطلقت اسمه على جمعية تعنى بالتأخي بين الأعراق، فضلاً عن جماعات كثيرة أخرى، يسارية وحقوقية وليبرالية، وغيرها، إلى درجة أنه أصبح أيقونة عصية على التذجين والتصنيف.

شريط خالد

تري، من يكون هذا الفيلم الذي افتتح للعرض في أكتوبر عام 1960 في الولايات المتحدة، وبلغت أرباحه 60 مليون دولار رغم أن ميزانية إنتاجه لم تتجاوز 12 مليون دولار، ورتب لـ17 جائزة سينمائية وثال 4 جوائز أوسكار منها أوسكار أفضل ممثل مساعد لبيتر أوستينوف، بالإضافة لأربع جوائز سينمائية أخرى مثل جائزة أفضل فيلم درامي من جوائز الغولدن غلوب؟

دوغلاس ثار ثورة «غلادياتور سبارتاكوسي» على نوعية الأفلام التي دأبت هوليوود على تقديمها من خلال مغامراته الإنتاجية التي مكنته من العمل في الأفلام التي يريدها. وستانلي كوبريك مخرج الفيلم يعده السينمائيون والنقاد، واحداً من أعظم صناع الأفلام في التاريخ.